عدو الشعب الجاشنكير

للأستاذ عطية الشيخ
علية

ما أحسن قول المنفلوطي في المصلحين : « إنهم أنصار الخير والأمر أن أنصاره هم قلة ، وإن كثر عدة وعددا ، وهم دائما هدف لغضب الملوك ، لأنهم يثيرون ثائرة الشعوب عليهم ؛ وغضب النبلاء لأنهم يحتقرون نبلهم ؛ ويزدرون مجدهم وعظمتهم ؛ وغضب الكهنة ، لأنهم ينعون عليهم رياءهم وكذبهم ؛ وغضب العامة ؛ لأنهم يصادرون أهواءهم وشهواتهم ، أي أن العالم كله حرب عليهم من أدناه إلى أقصاه ، وقلما تنتهي حياتهم إلا بمثل ما انتهت به حياة سقراط الحكيم وهومير الشاعر وأفلاطون الفيلسوف من قتل أو صلب أو حبس أو تشريد ، ولا ذنب لهم إلا أنهم أحبوا البشر ، وعطفوا عليه ، وتألموا لألمه ، وبكوا لبكائه . . . »

أقول هذا وأنا أتذكر مأساة بيبرس الجاشنكير ، ذلك الملك الذي يقول فيه المؤرخون : « كان ثابتا كثير السكون والوقار ، جميل الصفات ، ندب إلى المهمات مرارا عديدة ، وتكلم في أمر الدولة مدة سنين ، وحسنت سيرته ، وكان يرجع إلى دين وخير ومعروف ، وله أوقاف على وجوه البر والصدقة » ولا تزال بعض المدارس والآثار في القاهرة تحمل اسمه إلى اليوم ، وأصله من مماليك المنصور قلاوون ، ثم صار في أيامه من أعيان الأمراء ، ورقي بعده حتى صار أمير القاهرة ثم استدارا (١) ، وقد أشار باستدعاء الناصر بن قلاوون للسلطانة بعد قتل الملك المنصور لاجين ، فكافأه المنصور بأن أقره استدارا على عادته ، فاتفق مع نائب السلطنة سلار ، وأخذا في تدبير الملك بهمة ونشاط كفيلين المملكة ، وكان بيبرس مخلصا جدا للملك الناصر ، وفاء لأبيه الملك المنصور قلاوون الذي كان أستاذه وسيده ، ولكن بطانة السوء ، أوغرت قلبه عليه حسدا وبغضاء ولم تكتف بإثارة الملك حتى أثارت الشعب

---

(١) مراقبة بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب والحاشية والغلمان ، وله حديث مطلق وتصرف تام في نفقات القصور الملكية ومن فيها « صبح الأعشى »

فقال « يا فلان بن فلان ، ويا فلان بن فلان ، هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقاً فإني وجدت ما وعدني الله حقاً ؟ قال عمر : يا رسول الله ! كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها ؟ قال « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا على شيئاً »

وجاء في صحيح مسلم أيضاً عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك قتلى بدر ثلاثاً ، ثم أتاهم ، فقام عليهم ، فناداهم ، فقال « يا أبا جهل بن هشام ، ويا أمية بن خلف ، ويا عتبة بن ربيعة ، ويا شيبة بن ربيعة ، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً » فسمع عمر قول النبي صلى الله عليه وسلم . فقال : يا رسول الله ! كيف يسمعوا (كذا) وأنى يجيبوا (كذا) وقد جيفوا ؟ قال « والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا . ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا في قليب بدر اهـ

قال الحافظ في الفتح : ولم ينفرد عمر ولا ابنه بحكاية ذلك ، بل وافقهما أبو طلحة . وللطبراني في حديث بن مسعود مثله بإسناد صحيح . ومن حديث عبد الله بن سيدان نحوه . وفيه قالوا يا رسول الله ! وهل يسمعون ؟ قال « يسمعون كما تسمعون ولكن لا يجيبون » . وفي حديث ابن مسعود « ولكنهم اليوم لا يجيبون » .

ومن الغريب أن في المغازي لابن إسحاق رواية يونس بن بكير بإسناد جيد عن عائشة مثل حديث أبي طلحة . وفيه « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » وأخرجه أحمد بإسناد حسن . فكأنها رجعت عن الإنكار لما ثبت عندها من رواية هؤلاء الصحابة لكونها لم تشهد القصة .

وهذا الذي دعا معالي الدكتور طه حسين بك أن يدع رواية عائشة ، ويأخذ برواية هؤلاء الصحابة في كتابه (الوعد الحق) وهو القول الحق الذي وهاه الأستاذ محمود أبو رية في عدد الرسالة رقم ٨٦٥ بغير حق والسلام .

محمد فؤاد عبد الباقي

وليت شعري لم يولع اللئام بمحاربة الكرام ويحسدونهم ، ويتربصون بهم الدوائر ، ويقعدون لهم كل مرصد ولا يتركون فرصة إلا افترصوها ، ولا فرية إلا دبجوها ، ولا نار فتنة إلا أشعلوها، وياليت شعري لم يحتضن الرؤساء دائما الأخساء الدساسين ، ويقربونهم، ويرفعون شأنهم ؟ أما يعلمون أن الضعيف لا يكون مخلصا أبدا ، والذي خبث لا يخرج إلا نكدا ؟ ومن العجيب أن أكثر الحكم والأقاصيص قيلت في الوقيعة والنميمة والوشاية والدس ، ولكن كما آذان لا تسمع ، وقلوب لا تتعظ وليس كابن آدم يلدغ من الجحر سبعين مرة لا مرتين

في سنة ٧٠٠هـ وصل إلى القاهرة وزير ملك المغرب في طريقه إلى الحج ، واجتمع بالسلطان الناصر وبالأمير بيبرس الجاشنكير وبالأمير سلار نائب السلطنة ، فأكرموه وأنعموا عليه وعظموه غاية التعظيم . وفي بعض الأيام جلس الوزير المغربي بباب القلعة مع بيبرس ، وحضر بعض كتاب النصارى ، فتوهم المغربي أنه مسلم ، فقام إليه مسلما معظما ، ولما علم أنه نصراني قامت قيامته وهاج هائجه ، ودخل على السلطان مع بيبرس وتحدث في أمر اليهود والنصارى ، وأنهم في بلاد المغرب غاية الذل والهوان « لا يركبون الخيل ، ولا يستخدمون في الدولة » وأنكر على المصريين سماحهم للنصارى واليهود بلبس الثياب الفاخرة ، وركوب الخيل ، واستخدامهم في أكبر المناصب وتحكيمهم في رقاب المسلمين . وأكثر من الكلام في هذا الباب ، وذكر أن عهد ذمتهم قد انتهى سنة ٦٠٠هـ ، وقد أثر كلامه في السلطان والأمراء ولكن لم يأخذ أحد على عاتقه تنفيذ ما أشار به المغربي إلا بيبرس، لأنه كان أكثرهم تدينا ، فجمع النصارى واليهود ، وأعلمهم أنهم لن يستخدموا في الجهات السلطانية ، ولا عند الأمراء ، وكلفهم باختيار عمائم تخالف عمائم المسلمين ، فلبس النصارى عمائم زرقاء ، ويشدون زنانيرهم في أوساطهم ، ويلبس اليهود عمائم صفراء وحدد للتنفيذ « ٢٢ رجب سنة ٧٠٠ هـ » للظهور بزيهم الجديد . وقد عرضوا على بيبرس « الأموال الكثيرة الخارجة عن الحد ليعفوا من ذلك فلم يقبل » فنفذوا الأمر في الميعاد مرغمين ، في جميع بلاد المملكة من دنقلة إلى الفرات ، وإلى هذا الحادث يشير الوداعي بقوله :

لقد ألزموا الكفار شاشات ذلة ... وزيدهم من لعنة الله تشويشا
فقلت لهم ما ألبسوكم عمائما ... ولكنهم قد ألبسوكم براطيشا

ويقول شمس الدين الطيبي :

تعجبوا للنصارى واليهود سما ... والسامريين لما عمموا خرقا
كأنما بات بالأصباغ منسهلا ... نسر السماء فأضحى فوقهم ذرقا

سرت في الشعب موجة حماس ديني ، وأعجب السلطان بحمية الجاشنكير وأنعم عليه بدخل الإسكندرية مدة مقامه فيها الرياسة والنزهة ، وأراد بيبرس أن يتخذ يدا أخرى عند المسلمين فأمر في ٧٠٢ بإبطال عيد الشهيد عصر ، وكان عند النصارى تابوت فيه إصبع ، يزعمون أنها من أصابع بعض شهدائهم ، وأن النيل لا يزيد ما لم يرم فيه هذا التابوت ؛ فكان النصارى يجتمعون من سائر النواحي إلى شبرا (١) في ٨ بشنس من كل سنة قبطية ، ويحتفلون بهذا العيد « وكانت تثور فيه فتن وتقتل خلائق » وترتكب موبقات ، وتستباح الحرمات ، ويكثر اللهو والفجور ، حتى قيل إن تاجرا واحدا باع خمرا في هذا العيد بإثني عشر ألف درهم . وقد شق إبطال هذا العيد على النصارى ، وظاهرهم الأقباط الذين أظهروا الإسلام وذهبوا إلى بيبرس وعرضوا عليه أموالا كثيرة ، وخوفوه من عدم طلوع النيل ، فلم يلتفت لكلامهم ، وأبطل هذا العيد إلى يومنا هذا .

في سنة ٧٠٣ وصل إلى دمشق رجل من بلاد التتار يقال له الشيخ براق (٢) روى عنه حوادث خارقة للعادة ، ومعه نحو مائة فقير لهم هيئة عجيبة ، وعلى رأسهم قلانس لباد مقصوص فوقها عمائم ، فيها قرون من لباد تشبه قرون الجواميس وأجراس ، ولحاهم محلقة ، وشواربهم مرسلة ، ولبسهم لبابيد بيض ، وقد تقلدوا بحبال منظومة بكعاب البقر ، وكل منهم مكسور الثنية العليا ، وشيخهم جريء مقدام قوي النفس له محتسب يؤدب كل من يترك شيئا من سنته . وكان غازان ملك التتار يحترمه ويجله ،

(١) شبرة الخيمة أو الخيام سميت بذلك للخيام التي كانت تنصب في هذا العيد

(٢) راجع وفيات سنة ٧٠٧ والمنهل الصافي والدرر الكامنة والنجوم الزاهرة

ولـكن بيبرس رأى فى سنة الرجل مخالفة لسنة الإسلام ، فطلب من السلطان منعه من الديار المصرية فرجع إلى بلاده وفيه يقول سراج الدين الوراق

جئنا عجم من جو الروم صور تحير فيهـا الأفكار
لها قرون مثـــل الثيران إبليس يصيح فيهم زنهار

كان قد وقع بالقاهرة زلزال عظيم سنة ٧٠٢ دمر كثيرا من المساجد والمدارس فأخذ بيبرس يصلح ما تهدم ويجدد ما تقوض ، ولم يكد ينتهى من إصلاح ما أفسده الزلزال حتى بدأ فى سنة ٧٠٦ ينشىء الخانقاه الركنية ، التى لا تزال إلى اليوم بشارع الجمالية بالقاهرة ، وتعرف باسم جامع بيبرس ، وقد ذكرها المقريزى فى خططه (ص ٤١٦ ج ٢) فقال : « هى أجل خانقاه بالقاهرة بنيانا ، وأوسعها مقدارا ، وأتقنها صنعة » وقرر بها ٤٠٠ صوفى وبنى بجانبها رباطا كبيراً لمائة جندى مرابط ولمن أخنى عليه الدهر من كرام الناس ، وبنى فى الجانب الآخر من الخانقاه قبة لقبره ، رتب فيها درساً للحديث النبوى ، وجهز الخانقاه بمطبخ يمد طعاما للنازلين « من الخبز واللحم والحلوى كل يوم » وقد تم بناؤها سنة ٧٠٩ هـ

كان الجاشنكير حى الضمير ، متأجج العاطفة الدينية راسخ العقيدة ، شديد الخوف من الله ، لذلك كان يدقق تدقيقاً عمريا فى مصرف كل درهم من دراهم بيت المال ، حتى كان يحاسب السلطان نفسه على كل شىء ، ويمنع عن القصور السلطانية مايرى فيه إسرافا وتبذيرا . وكان من الممكن أن يرضى السلطان بهذا لعلمه أن الدافع إليه شريف ، وأن القائم به من أخلص الناس إليه ، وهو الذى استدعاه إلى كرسى الملك ، ولا يزيد عن كونه مملوك أبيه ، وأن الأمين على مال الدولة إذا عفت يده وطهرت سرت الطهارة فى جميع مرافق الدولة ودواوين الحكومة ، وامتلأت الخزائن وزكت النفوس ، وثبتت دعائم الدولة ، وخمدت بواعث الفتن ، وفشا الرخاء فى الأمة وأمكن الاصلاح ، وكل أولئك من عوامل تثبيت الملك ، وصيانة العرش ، واتساع العمران فى الدولة .

لـكن هل يهم ذلك فى شىء بطانة السوء التى تظهر للسلطان ما يحب ، وتضمر ما يكره ، وتريد أن تشبع ولو جاع الشعب ، وتملأ خزائنها ولو خوى بيت المال ، ولا تعيش إلا إذا أبعدت السلطان عن شعبه والمخلصين له ، ونشرت جوا من الإرهاب يشغل كل امرىء بنفسه ، وقد اتفقت بطانة السوء عند الناصر ، والحاسدون بيبرس الجاشنكير على ما وصل إليه عند الشعب من مركز ممتاز ، ومكانة عالية ، ومقام رفيع ، والمرتزقة الذين يلتقطون الفتات ، ويتمنيدون الفضـــلات ويعيشون عيالا على مال الأمة ، واللصوص والمرتشون الذين قطعت أمانة الجاشنكير أرزاقهم ، وخربت بيوتهم ، فإما الـكسب الحلال ، وإما الجوع والفقر المدقع — اتفق هؤلاء جميعاً على إقصاء بيبرس والكيد له ، وأخذوا يقلبون الأمور للسلطان ، ويتجمون مراتع الباطل ، ويبتنون الفتنة ، ويشيمون بروق المكائد ، وساعدهم على تحقيق بغيتهم صغر سن السلطان ، وقلة تجاربه ، فبدأ قلبه يتغير على بيبرس أكبر المخلصين له ، والحافظين لدولته ، والمتفانين فى خدمته . وما أشد الحقد إذا غرس فى الصغر وأخذ ينمو ويترعرع مع الـكبر .

كان بيبرس وسلار كفيلى المملـكة والقائمين بأمرها ، وقد أعانهما على حسن التفاهم فى العمل أخوة فى الخدمة وزمالة فى ساحات الجهاد ، ومحبة من طول الصحبة ، ورأت البطانة أن أول واجب عليها للوصول إلى مأربها . إفساد ما بين الـكفيلين ، وضرب كل منهما بصاحبه ، فسولت لها نفسها أن توقع بين سفيه من أتباع أحدهما وسفيه من أتباع الآخر ، حتى يجر كل صاحبه إلى المخاصمة ، وهى حيلة شيطانية لا يتقنها إلا من تربى فى أعطان الفتن ، وقد نجحت المؤامرة فى شخصى الطشلاقى حليف سلار والبروانى حليف الجاشنكير ، فسطا الطشلاقى على البروانى أمام باب القلعة فى حضور الأمراء ، فشكا البروانى إلى بيبرس فاستدعى الطشلاقى ليعاتبه ، فأساء فى الرد وأفحش فى القول ، فاستل بيبرس سيفه ليضربه به ، ولـكن الأمراء تكاثروا عليه ومنعوه منه ، فأمر بيبرس بنفيه إلى دمشق ، وأخذ سلار يرجوه فى الابقاء على حليفه ، وبيبرس يأبى ويعدد مساوئه ، وأثيرت المسألة فى حضرة السلطان فأراد استغلالها لإثارة الفتنه بينهما ، ولـكنه لم يفلح ، لأن سلار التزم الصمت وكان فيه دهاء وذكاء وحسن تدبير ، فعلم أن وقوع الخلف بينهما ، يعجل بنهايتهما ، لأن الملك بدأت تظهر فيه رغبة جامحة للاستئثار بالملك والاستبداد به ، وكان ذلك بدافع من خاصته وإشارة من بطانته لحاجة فى أنفسهم